إيذاء قريش

كمَا ينتشرُ نورُ الشمس شيئًا فشيئًا ليطلعَ النهارُ، انتشرَ الإسلامُ في مكةَ، فكلَّ يوم يسمعُ ساداتُ قريشٍ بمَن يدخلُ في الدين الجديد، والرسولُ ﷺ ثابتٌ على موقفه لا يقبلُ مساومتَهم لهُ علَى دينه، ويتحمَّلُ في سبيلِ الله تعنُّتَهم وإيذاءَهم له ولصحابته، رضوانُ اللهِ عليهِم.

* * *

وكانَ من صُورَ هذَا الإيذاء السخريةُ والاستهزاءُ والتكذيبُ، فكانُوا يتعرَّضُونَ للرسول ﷺ وصحابته في الطرقات ويلقُونَ عليهم الشتائم، ويرمُونه ﷺ بتُهَم هزيلة. . وكانُوا كمَا قصَّ اللهُ علينَا في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾[1].

* * *

(١) سورة المطففين: الآيات ٢٩ - ٣٣.

ويقصُّ علَينا عبدُ الله بن عمرو بن العاص بعضَ ما رآه أبوهُ عمرُو ابنُ العاص من إيذاء قريش للرسول ﷺ فيقولُ:

ذاتَ يومٍ سألتُ أبي وقلتُ له:

- ما أكثرُ ما رأيتَ قريشًا أصابُوا من رسول الله ﷺ فيمَا كانُوا يظهرونَ من عداوتِه؟

فقالَ:

- حضرتُهُم وقد اجتمعَ أشرافُهم يومًا في الحِجْر[1]، فذكَرُوا رسولَ الله ﷺ فقالُوا: ما رأيْنَا مثلَ مَا صبَرْنا عليه من أمر هذَا الرجل قطُّ، سفَّهَ أحلامَنا، وشتمَ آباءَنا، وعابَ دينَنا وفرَّق جماعتَنا، وسبَّ آلهتَنا. لقد صَبرنا منهُ علَى أمر عظيم.

فبينَما هُمْ يقولونَ ذلكَ إذْ طلعَ رسولُ الله ﷺ فأقبلَ يمشي نحوَ الكعبة حتَّى استلمَ الركنَ، ثمَّ مرَّ بهم طائفًا بالبيت، فلمَّا مرَّ بهم شتمُوه ببعض القول، فغضبَ الرسولُ ﷺ وظهرَ الغضبُ على وجهه، ثمَّ مضَى دونَ أن يكلمَهم.

(١) هو حِجْر إسماعيل المتَّصل بالكعبة.

فلمَّا مرَّ بهمُ الثانيةَ شتمُوه، فمضَى دونَ أن يكلِّمَهم، ثمَّ مرَّ بهم فشتمُوه، فوقفَ وقالَ مهدِّدًا لهُم ومتوعِّدًا:

- «أتسمعونَ يا معشرَ قريشٍ، أمَا والذي نفسي بيده، لقدْ جئتُكم بالذبحِ».

فسكتَ القومُ كأنَّ علَى رؤوسِهم الطيرُ، وقامَ بعضُهُم يهدِّئُ النبيَّ ﷺ ويقولُ لَه:

- انصرفْ يا أبَا القاسم، فوالله ما كنتَ جَهولاً..

فانصرفَ رسولُ الله ﷺ حتَّى إذَا كان من الغَد اجتمعُوا في الحجْر وأنا معَهُم (١) فقالَ بعضُهم لبعض: ذكرْتم ما بلغَ منكُم، وما بلغكم عنهُ، حتَّى إذا بادَأكُم بما تكرهُونَ تركتُموه، فبينَما هم في ذلكَ طلعَ عليهم رسولُ الله ﷺ فوثبُوا إليه وثبةَ رجل واحد، وأحاطُوا به يقولونَ: أنتَ الذي تقولُ كذَا وكذَا.

فيقولُ رسولُ الله ﷺ:

- نعم أنا الذي أقول ذلك.

(١) لم يكن عمرو بن العاص قد أسلم عندما حدث ذلك.

فأخذَ رجلٌ منهُم بمجمَع رداء النبيِّ فقامَ أبوبكر مسرعًا، وحالَ بينَ رجال قريشٍ وبينَ رسول الله، وقالَ وهو يبكي:

- أتقتلونَ رجلاً أن يقولَ ربِّيَ اللهُ؟!

فانصرفُوا عن الرسول ﷺ.

وذاتَ يوم مرَّ أبو جهل برسول الله ﷺ عندَ الصفَا، فآذاه وشتَمه، ونالَ منهُ بعضَ ما يكرَهُ من العيب لدينه والتضعيف لأمره، فلمْ يكلِّمْه رسولُ الله ﷺ، وكانْت مولاةٌ لعبد الله بن جدعانَ تسمعُ ذلكَ.

وبعدَ قليل أقبلَ حمزةُ بنُ عبد المطلب -رضيَ اللهُ عنه- متوشِّحًا قوسَه، فلمَّا مرَّ بالمولاة قالتْ له:

- يا أبَا عمارةَ، لو رأيتَ ما لقيَ ابنُ أخيكَ محمدٌ آنفًا من أبي الحكَم بن هشام، وجَدُه هُنَا جالسًا فآذاهُ وسبَّه وبلَغَ منهُ مَا يكرهُ، ثم انصرفَ محمدٌ عنهُ ولم يكلِّمْه.

فغضبَ حمزةُ ومضَى بينَ سادَات قُرَيش حتَّى وقفَ أمامَ أبي جهل فرفَعَ القوسَ وضربَه بها فشجَّ رأسَه، ثمَّ قال:

- أتشتُمُه وأنَا على دينه أقولُ ما يقولُ؟ فرُدَّ ذلكَ عليَّ إن استطعتَ.

فقام رجالٌ من بني مخزوم إلى حمزة لينصرُوا أبا جهل، فأشارَ إليهم أبو جهل قائلاً:

- دعُوا أبا عمارةَ، فإنِّي والله سَبَبْتُ ابنُ أخيه سبّا قبيحًا.

وأسلَمَ حمزةُ - رضيَ اللهُ عنهُ- فعرفَتْ قريشٌ أنَّ رسولَ الله ﷺ قدْ عزَّ وامتنعَ، فكفُّوا عنهُ بعضَ آذاهُم.

ولم يتوقفْ كفارُ قريش عن مساوماتهم للرسول ﷺ.

وكانَ من ذلكَ أن عرَضُوا عليه أن يعبدَ آلهتَهم عامًا ويعبدونَ ربَّهُ عامًا، فقدْ كانَ رسولُ الله ﷺ يطوفُ ذاتَ يوم بالكعبة فاعترضَه الأسودُ بنُ المطلب بن أسد بن عبد العُزَّى والوليدُ بنُ المغيرةِ وأميَّةُ ابنُ خلف والعاصُ بنُ وائل، فقالُوا:

- يا محمدُ هلمَّ فلْنعبدْ ما تعبدُ، وتعبدْ ما نعبدُ فنشتركُ نحنُ وأنتَ في الأمر، فإنْ كانَ الذي تعبدُ خيراً ممَّا نعبدُ كنَّا قدْ أخذنَا بحظِّنا منهُ، وإنْ كانَ ما نعبدُ خيراً مما تعبدُ كنتَ قد أخذتَ بحظِّكَ منهُ.

فرفضَ رسولُ الله ﷺ هذه المساومَةَ، وأنزلَ اللهُ تعالَى فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

* * *

وكانَ أبو لهب - عمُّ النبيِّ - من أكثر كفار قريش إيذاءً لهُ، فقدْ كانَ يجولُ خلفُ النبيِّ ﷺ في موسم الحجِّ والأسواق لتكذيبه، وكانَ يضربُ النبيَّ بالحجارة الصغيرة.

وكانْت زوجةُ أبي لهب لا تقلُّ عنْ زوجها عداوةً للنبيِّ ﷺ؛ فقدْ كانَتْ امرأةً سليطةَ اللسان، وكانتْ تحملُ الشَّوكَ وتضعُه علَى باب النبيِّ ليلاً ليتعثَّرَ به وهو خارجٌ؛ ولذلكَ سمَّاها القرآنُ الكريمُ ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ونزل فيها وفي زوجها قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾[1].

ولما سمعتْ ما نزلَ فيهَا وفي زوجها جاءتْ إلى رسول الله ﷺ وهوَ جالسٌ عندَ الكعبة ومعهُ أبو بكر الصديقُ، وقد ملأت كفَّها

(١) سورة المسد: الآيات ١ - ٥.

حجارةً صغيرةً، فأذهبَ اللهُ بصَرها عن رسول الله ﷺ فلمْ تَر إلا أبا بكرٍ، فقالتْ:

- يا أبا بكرٍ أينَ صاحبُكَ؟ قدْ بلغني أنه يهجُوني.. والله لو رأيتُه لضربتُ بهذه الحجارة فَاه[1].

ثمَّ انصرفتْ، فقالَ أبو بكرٍ للرسول ﷺ:

- يَا رسولَ الله، أمَا تراهَا رأتْك؟

فقالَ:

- ما رأتني لقدْ أخَذ اللهُ ببصرها عنِّي.

ويروي ابنُ إسحاقَ فيقولُ: كانَ النَّفَر الذينَ يؤذونَ رسولَ الله ﷺ في بيته: أبا لهب، والحكَمَ بنَ أبي العاص بن أميَّةَ، وعُقْبَةَ بنَ أبي مُعَيْط، وعديَّ بنَ حمراءَ الثقَفي، وابنَ الأصداء الهذَليَّ وكانُوا جيرانَه!! لم يُسلمْ منهُم أحدٌ إلا الحكمُ بنُ أبي العاص. فكانَ أحدُهم - وهوَ عُقبةُ بنُ أبي مُعَيط - يطرحُ علَى رسول الله ﷺ رَحِمَ الشاةِ وهو

(١) فاه: فمه..

يصلّي، وكان أحدُهم يطرحُه في بُرْمَته[1] إذا نُصِبَتْ له، حتَّى اتخذَ رسولُ الله ﷺ حَجَرًا ليستترَ به منهُم إذا صلّى.

وكانَ رسولُ الله ﷺ إذا طرحُوا عليه ذلكَ وهمْ جيرانُه يخرجُ به، ويقفُ على بابه ثمَّ يقولُ:

- يا بني عبد مناف.. أيّ جوارٍ هذا؟!

* * *

وهكذَا مضتْ قريشٌ في إيذائها للنبيِّ ﷺ وصحابته فقدْ كانُوا يعذِّبونَ المستضعفينَ من المسلمينَ ويضربونَهم بالسياط ويضعونَ على أجسادهم الحجارةَ الثقيلةَ في صحراء مكةَ في شدةِ الحرِّ.. فصبرُوا علَى ما أوذُوا حتَّى أتاهُم نصرُ الله.

ولما اشتدَّ تعذيبُ المشركينَ لصحابة رسول الله ﷺ جاءَ إليه خبَّابُ ابنُ الأرَتِّ، وقالَ:

- يا رسولَ الله، ألا تدعُو اللهَ لنَا؟

(١) البُرْمَة: القدر التي يُطبَخُ فيها الطعام.

فقامَ ﷺ مُحْمَرَّ الوجه وقالَ كلمات يُثبِّتُ بها صحابتَه:

«قدْ كانَ من قبلكم يؤخذُ الرجلُ فيحفَرُ لهُ في الأرض، ثمَّ يُجاءُ بالمنشار فيُجعَلُ فوقَ رأسه مَا يصرفُه عنْ دينه، ويُمْشَط بأمشاط الحديد مَا دونَ لحمه من عَظْم وعَصَب، ما يصرفُه عَن دينه، ولَيُتمَّنَّ اللهُ هذَا الأمرَ حتَّى يسيرَ الراكبُ من صَنعاءَ إلى حضرَموتَ لا يَخشى إلا اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ والذئبَ علَى غَنَمه، ولكنَّكُمْ تَعجَلُونَ»[1].

لقدْ أرادَ النبيُّ ﷺ بهذه الكلمات أن يثبِّتَ أصحابَه علَى طريق الحقِّ، فيستسهلُوا العذابَ في سبيل الله.. وتهونَ عليهم الدنيَا في سبيل نشر دين الله.

وكانَ ﷺ يمرُّ عليهم وهم يُعَذَّبونَ في صحراء مكةَ وقتَ الحرِّ الشديد، فيرقُّ لهُم ويدمعُ قلبُه، ويعدُهم بنصر الله القادم لا محالةَ؛ فإنَّ المسلمَ في فوز دائم مَا دامَ علَى طريق الله.. فإمَّا النَصْر وإمّا الشَّهادة والفوْز برضوان الله.

وذاتَ يوم مرَّ رسولُ الله ﷺ علَى عمّار بن ياسر وأبيه وأمِّه

(١) أسْد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، جـ: ١، ص: ٥٩٢.

(سميّة)، وكانَ أبو جهل ومعَهُ عددٌ منْ كفَّار قريش يخرجونَهم إذا حَميَت الصحراءُ واشتدَّ حرُّها فيعذِّبونَهم.. فلمَّا رأى النبيُّ ﷺ ذلكَ قالَ لهُم:

- صبراً آلَ ياسر، فإنَّ موعدكم الجنةُ.

وماتَ ياسرٌ في العذاب، وقامَ أبو جهلٍ فطعَنَ سميّةَ أمَّ عمارٍ بَحرْبَةٍ فماتَتْ وهيَ أولُ شهيدة في الإسلام.

وكانَ أميَّةُ بنُ خَلَف يعذبُ بلالَ بنَ رباحٍ في صحراء مكةَ، يضعُ عليه الحجارةَ الثقيلةَ وبلالٌ يتحمَّلُها في ثباتٍ ويرفعُ سبَّابَتَه إلى السماء قائلاً نداءَه المعروفَ:

- أحَدٌ.. أحَد.

فمرَّ عليه أبو بكرٍ - رضيَ اللهُ عنهُ - فاشتراهُ من أميةَ، وأنقذَ بلالاً من التعذيبِ وأعتقَه من ذُلِّ العبوديةِ.

واشترَى أبو بكرٍ - رضيَ اللهُ عنهُ- كثيراً من العبيد والجواري ممن أسلمُوا وأعتقَهم في سبيل الله.

وهكَذَا بذلَ المشركونَ ما بذلُوه من صنوفِ العذابِ، ووقفُوا في

طريق الدعوة وفي طريق الإسلام بالمرصاد، ولكنَّهم واجَهُوا قلوبًا قويةً بالإيمان، وأرواحًا متَّصلةً بالسماء، لا يصرفُها عن دينها تنكيلٌ أو تعذيبٌ، بلْ كانُوا يَستعْذبونَ ذلكَ في سبيل الله.

ومضَى الرسولُ ﷺ في دعوته غيرَ آبه بإيذاء الكفار لهُ، وفي كلِّ يوم يشعُّ نورُ الإسلام في بيتٍ من بيوتِ مكةَ ولو كرِهَ الكافرونَ.